الفاجعة

بقلم: براءة الجودي

صفع الباب بقوة ودلف الفيلا يركض وهو يحمل في جعبته الفاجعة. نادى ماجد بصوت يهزّه الأسى : أمّاه والدي مات ، مات. رجّت هذه الكلمة في أرجاء المنزل، وتضخّمت لترتطم بجدران الصّالة، فترتدُّ على أسماعهم مرَّات ومرَّات.. تسمّرت هندٌ في مكانها، وياسرٌ فاغرٌ فاه، وسديمٌ لم يتحرّك فيها ساكن وهي تجلس على تلك الأريكة المرقّشة، بل كانت تنظر بجمودٍ وترقُّبٍ. أمّا الأمّ، فقد اتّسعت حدقتاها وهي تردّد باحتساب : إنا لله وإنا إليه راجعون اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرا منها ".

ما الذي حصل بالضّبط يا ماجد؟ اهدأ واشرح لي.

– لم يكن هناك شيء جديد.. السّرطان هو السّرطان يستشري في جسد الإنسان حتّى يقضي عليه. كان بصحّة جيّدة، يبتسم ويتحدّث معي، وفجأة أغمض عينيه وانقلب ناحية اليمين. ارتبكتُ فهززته، ولكنّه لم يتحرك. أسرعت بين أروقة المشفى أنادي الطّبيب "أيمن كمال"، فقدم معي نحو سريره في الحجرة بالعليَّة، ومعه مايلزم للكشف. قلَب والدي وبدون عناء أخذ

يتحسَّس نبضه، وهو يهزّ رأسه بصمت أن لاجدوى.. فقد حياته – رحمه الله رحمة واسعة –. تلقّيت الخبر منه، وكنتُ على رجاء أنّه مازال حيًّا، فوقع قوله في قلبي ثقيلا حتّى أضحيتُ كمن ينازع سكرات الموت . عمومًا سيكون الدّفن بعد العصر، ولم يتبق سوى ساعتين على الآذان.

أسرعت هند لجلب عباءتها، وياسر يبحث عن فردة حذائه بذهن مشتّت، وأمّهم تحاول الصّمود، والدّمعة تخذلها. خرج الجميع عدا سديم.. مرّت هند من جانبها، ولوت رأسها قائلة بعتاب :

أعديمة الإحساس أنتِ ؟ ألن تريه معنا قومي يا..

– بترت عبارتها بصوت مرتفع قليلا : لاأستطيع ذلك ، اذهبي أنتِ (قالتها بملل)

– ستندمين لاحقا.

انطلقوا بالسّيارة إلى المشفى حتّى ينقلوه إلى المغسلة. بعد رؤيته وسديم ولجت الغرفة تجرُّ خطاها، وكأنّ هموم الدّنيا تكالبت لتجندلها وتثقل حركتها. شعرت بحرارة صادرة من جسدها، والدّمع يعانق شفتيها، حتّى أمست تطوي الوقت في أنين، ويتلاطم موج الحنين محوملامحه، وصورته العالقة في الذّاكرة كلوحة أتقنها، وأبدع بها أفضل فنّان لأمر محال.

المشاعر متضاربة، والأحاسيس تتكدَّس داخلها متنازعة.. سقطت منهارة تبكيه. مرَّ الشريط سريعا لما سمعته وشاهدته من ذكرى والدها " حمود التّميمي"، الأب الذي عانى طوال حياته وعاش يتيما، طفلا بعقل الكبار. كرَّس حياته في العمل، واعتمد على نفسه في جميع شؤونه، وتعرَّض لمواقف مخزية وأحداث ذُلَّ فيها كبرياء الرّجل، لكنَّ الحياة علّمته التّصرّف بحكمة.. تزوّج من ابنة عمّه، وكان يدير عددا من الشّركات، إضافة إلى ما يملكه من العقارات، حيث أصبح تاجرا يشار إليه بالبنان. لَكَم ساعد الكثير ممّن حوله أقاربه، أصحابه، وأناسا أُخَر.

التفّ حوله الجميع ليملأوا بطونهم، ونظراتهم الجشعة تطمع في المزيد من أمواله الطّائلة. احتالوا، سرقوا، وهو كأنّما اتّخذ هذه الآية شعارا له : " فمن عفا وأصلح فأجره على الله"، حتّى إذا خسر جُلَّ أمواله وأنهكه المرض وتراكمت على جسده أتعابُ السنين، تلاعبت الأفاعي حوله، وتظافرت عليه الدّيون. حينها تخلّى عنه الجميع كما لم يكن يوما ما ملكا يحيطه خدم وحشم يعملون تحت إمرته، وإن أتت فرصة لانتكاسته خذلوه وتشفوا به. الشّماتة من الاقرباء كمن يمسك قطعة حديد يعرضها للنار ويضعها على جلدك مستعرة، حينها كيف سيكون مقدار ألمك ؟

والأدهى والأمرَّ، أن تلقى الجرأة والتّمادي من أبنائك حتى ينهال عليهم سوط النّدم الذي يوقظ حسهم بعد مماته، فعرفوا كم هم حمقى عندما جلسوا على أرجاس الحسّاد، واستمعوا لهم بآذان صاغية. سيبكونك اليوم وينسونك غدا تحت وطأة المشاغل وصخب الحياة.

ردّدت بعينين تفيضين بالشّجن : إن رأيتك كما فعلوا ستزيد أطنان الألم بداخلي.. حبّك ألم..موتك ألم.. ذكراك ألم.. عيشي بعد موتك ألم.. الحياة برمّتها معاناة لذواتنا الإنسانيّة الخرقاء.

شرعت تشهق وتعضّ شفتيها بحسرة : أبتاه، ما أنا إلا دمية بين يديك. افعل بي ما تشاء. اذبحني، اسلخني، اضربني بأقصى قوّة لديك، خذني للقبر بدلا عنك، رحمك الله، افعل بي ماتريد، فأنا رهن إشارتك أحبك.. كلاَّ بل أفديك بكلّ كياني. فقط عُد، عد كما كنتَ.

كانت تتساءل بحاجبين مرتجفين وشفاه مرتعشة : هل حبّ أسرتك والتضحية تنقلب ضدك؟ أم أنّكَ لم تضع التّضحية في مكانها الصّحيح " أبي" ؟

ماأقسى العالم، وما أغبى البشر!

فرَّ منها الذّهول، وماتت آخر دمعة على شاطئ أحزانها الذي دنّسته الجراح، ووقعت في شرك اللامبالاة المعتادة. قهقهت وهي تصفع رخام الغرفة بكفّها، وكأنّما أصابها ضرب من الهذيان.

علا صوت الآذان ليعلن أن صلاة العصر قد حانت. وصل أهلها، ترجّلت منيرة وابنتها هند من السّيارة، ودخلتا البيت. توجّه الأبناء نحو المسجد للصّلاة، اتّجه الجميع نحو المقبرة، حيث حضر جمع غفير لتشييع جنازته.

حمل ماجد وياسر والدهما ليضعاه بيديهما في الحفرة الضّيقة، منزل الإنسان وموطنه الذي خُلق منه. فكّوا الأربطة منه، وسدّوا عليه في لحده بلبنات ثم أهالوا عليه التّراب، وهما يدعوان لوالدهما بالثّبات، فالآن يُسأل.

يا الله! كم هو شعور صعب على الإنسان عندما يضع شخصا عزيزا عليه في حفرة ضيقة، ثمّ يهيل عليه التّراب بيديه، وماء عينيه يروي الأرض، فتنمو نباتات صحراوية تقبع في وحدتها المريرة.

هكذا تماما ينمو الحزن ويترعرع في صدورنا.. فما إن يأتي سيل الفرحة الجارف، ويقتلعه حتّى تُلقي النوائب بذرتها مرة أخرى في القلب، نسقيها بالبكاء فيكبر الأسى، حيث تمتدُّ جذوره ملتفّة حول عروقنا تتشبّث بقوّة، وتسير حيث سار الدّم بجميع

اتجاهات الجسد، فيصعب نزعها ونمارس حينها طقوس الأشجان – بهذا كان يحدَّث ياسرٌ نفسه.

توافد المعزّون إلى الدّار، فالرّجال مابين داخل وخارج، والنّساء تتفاوت ملامحهن مابين متجلّدة وصامتة، وأخرى متأثّرة دامعة، وثالثة مستمتعة برشف القهوة ساهية. ومن بينهنّ امرأة تصطنع الشّفقة، حينما رأت سديم حركت رأسها متباكية : المسكينة يتيمة!

قذفت إليها سديم نظرة ماقتة وتمتمت: إذا اختلطت دموع في خدود تبيَّن من بكى ممّن تباكى. ثمّ رفعت صوتها بثبات : لابأس، نبيّ الأمّة محمد صلّى الله عليه وسلّم كان يتيما.

استدارت ناحية المطبخ، وهي تسخر من امرأة عمّها البغيضة.

فتحتِ النّافذة لتنتعش رئتاها بقليل من الهواء العابر، فإذا بالشّفق يحمرّ وتتوارى الشمس في المغيب إلى ما وراء الكون ترحل..

فتقذف في الفؤاد حسّا غريبا، وصمتا مميتا وضجيج نبض أحمق.